البلاغة العربية بين الموت والإحياء

د. أحمد يوسف علي

جامعة قطر

Abstract: Increased contact with science discourse analysis and fascination with the achievements of this science, I think a team of researchers - in our Arab countries - Arab rhetoric that has become a historical note such as archaeological discoveries that have no place except in museums that people visit to see the orbits of history in the life of nations. And kept this team mourns the Arabic rhetoric rigid what he thinks and what he says was martyred on the task of a ring of rings the history of Arab rhetoric and eloquence of this episode is Alskaki. The strange thing is that they have read Alskaki traditional reading in order to achieve their goal to prove the death of Arab rhetoric and who prophetedrenewal, communication and democracy of reading to another known their vocabulary.

لم يدر في فكري يوما ما من الأيام أن البلاغة العربية ستكون مثار جدل عنيف بين فريقين أحدهما ينعاها وقد شيعت إلى مثواها الأخير والثاني مازال يتشبث برمق الحياة فيها فيحاول بعثها وإحياءها ويعمل على وصلها بالحياة المعاصرة وصلا لا يفارق طبيعتها ولا ما حققته على مدار تاريخها الطويل.

والسبب في هذا التنازع العنيف هو ما حققته علوم اللسانيات والأسلوب وتحليل الخطاب والعلوم الاجتماعية من منجزات لا يمكن تجاهلها ولا إنكارها. ولكن كيف تكون سنة التطور هي سبب التنازع والاشتغال بقضايا علم البلاغة العربية؟ لأن فريقا من الباحثين فتشوا في بعض جوانب تاريخ البلاغة العربية تفتيشا سريعا عن أسباب التواصل بينها وبين هذه المنجزات فقضوا على السابق بما أنجزه اللاحق ولم يفطنوا – ربما – إلى اختلاف السياقات واختلاف الأسئلة المطروحة في كل حقبة زمنية عن الأخرى وهو اختلاف ترتبت عليه نتائج

شكلت صورة العلم في زمننا وفي زمن البلاغة العربية. واختلاف السياقات واختلاف الأسئلة لم يكن حكرا على البلاغة العربية ولا على العلوم العربية ولا حتى على منجزات الحضارة العربية الإسلامية في الأدب والفن والفكر والعلم. فقد ظل البحث في العلم الطبيعي رهين المنطق الأرسطي الشكلي حقبا طويلة من الزمن وظل البحث عن الماهيات هو السائد والمقبول إلى أن تحول منهج العلم من البحث عن الماهيات إلى البحث عن الوظائف والاستعانة بالمنهج الرياضي فحدثت الطفرة الهائلة في التقدم العلمي، ومع ذلك لم يستطع أحد مهما كان أن يهيل التراب على ما سبق بدعوى أنه يناقض العلم أو لا يعانق الحياة أو لا يخاطب الجماهير. فليس من شأن العلم أن يخاطب الجماهير وهي كتلة غريبة غير متجانسة ولا يضمها تصنيف واحد ولكن من شأن العلم أن يدرس القضايا والمشاكل التي تعانيها الجماهير وأن يصل فيها إلى قول محدد ونتائج واضحة.

وما نقوله الآن يصح عندنا كما يصح عند غيرنا. فأرسطو وهو الذي عاش في اليونان قبل الميلاد بقرون طويلة مازال موضع النظر والتأويل والمراجعة وما زال في فكره الفلسفي جوانب قابلة للبناء عليها وتطويرها وهذا ما فعله فريق العلماء الذين أسسوا مباحث البلاغة على أساس الحجاج.

والبلاغة العربية بوصفها منظومة فكرية في الأساس تبلورت على مدى قرون طويلة شهدت تحولات في الثقافة وانكسارات في الحضارة وخوفا من ضياع الهوية أو تهميشها، تحمل في طياتها عوامل بقائها كما تحمل عوامل فنائها. وشأنها في ذلك شأن كل حي من الأحياء. وليس من العلم تجاهل طبائع الظواهر ولا طبائع موضوع البحث وأقصد هنا المادة التي يدور عليها الكلام أو البحث وهي المعنية بما نسميه البلاغة العربية في طور من أطوارها وهو طور صاحب "المفتاح" لأن هذا الطور هو المتهم عند فريق عريض من الباحثين القدماء والمحدثين بما أصاب البلاغة العربية من جمود وتخلف أفضى إلى الموت، وهو

البريء الذي أسدى للبلاغة العربية عطاء وفيرا يصلح للبناء عليه ووصل ما انقطع بين البلاغة العربية ومنجز زمننا هذا فيما نسميه علوم اللسانيات أو علم لغة النص أو تحليل الخطاب أو اختصارا لكل ذلك السيميوطيقا.

وأصل التجديد أو التطوير أو البعث أو الإحياء أو النهوض (وكثرة الأسماء تدل على غموض المسمى) هو الاستجابة لمشكل الواقع الراهن الذي نعيشه وأقصد بهذا الواقع كيفية صياغة العلاقة مع تراثنا وصياغة علاقتنا مع معاصرينا الذين نعيش معهم وبلورة توجهاتنا نحو المستقبل، حينئذ نكون قد حددنا هدفنا من التجديد أو ما شئت من تسميات كما حددنا علاقتنا بمن نعيش معهم من بني جلدتنا المختلفين معنا ومن غير بني جلدتنا من شعوب الأمم الأخرى ومنهم أوربا على نحو خاص. فعلاقتنا بأوربا علاقة ملتبسة من ناحيتين الأولى الغلبة والقهر والغطرسة وما يترتب عليه من كراهية ورفض وشك ومقاومة، والثانية العلم والرقي المجتمعي واحترام القانون وما يترتب عليه من إعجاب وقدوة حسنة وانبهار. وسيظل هذا التناقض الشعوري يحكم توجهنا نحو أوربا إن لم نحدد على أي أرض نقف، وأي تراث نبتغي من تراثنا. فمشكل علاقتنا بالتراث ومنه البلاغة لا يقل عن مشكل علاقتنا بغيرنا.

فتراثنا قد يكون موطن إعجاب وجذب لفريق من الناس يعيشون بيننا ويبحثون عن الفردوس المفقود أو عن الخوارج وما يمثلون أو عن الشيعة أو عن المقهورين من عامة الناس وبسطائهم أو المعتزلة ومنطقهم وحجاجهم أو الأشاعرة. وهذا الجانب نفسه من التراث قد يكون موضع رفض واستهجان عند فريق آخر منا. وهذا يعني أن التراث عندنا هو نفسه الذي عند غيرنا فترات متراخية من الزمن وشخصيات وإن غابت عن الوجود مازالت حية مؤثرة فاعلة، وقيم ومواقف تتفاوت من حال إلى حال ومن طبقة إلى طبقة. ولا يمكن بحال من الأحوال إسقاط هذه الخيارات أو إغفالها. وإذا كان فريق الكارهين لتراثنا وما فيه

يتوجهون بعقولهم وقلوبهم إلى الشاطئ الآخر من البحر أو المحيط فهم دون أن يدروا يرفضون تراثا ويقبلون تراثا آخر وإن كان معاصرا. فالذين يتشبثون بفترات مشرقة أو مخفقة من تراثنا مثل الذين يرفضونه ويتشبثون بفترات مماثلة من تراث غيرنا حتى وإن كانوا يعيشون بيننا ويتكلمون بلغة عصرنا ويزعمون أنهم أئمة التنوير والتثوير والعقل. فهؤلاء وهؤلاء أصوليون ولكنهم لا يشعرون. والتجديد محنة ووبال إن لم يبدأ بفقه الواقع والانطلاق من ضروریاته الملحة نحو تراثنا أو تراث غيرنا بغض النظر عن زمنه الذي لا أقصد به شروط الإنتاج كما يقولون

لذا أعتقد أن تجديد الأصيل ينبع منه ولا يفرض عليه من الخارج، والأصيل هنا هو كل المادة التي نستدعيها لعلم من العلوم العربية مثل البلاغة والنحو الذي تعرض لما تعرضت له البلاغة العربية من محاولات وصلت إلى إهدار النحو العربي وإنشاء نحو جديد على غرار نحو الإنجليزية وكتابة العربية بحروف لاتينية من أجل اللحاق بركب التقدم الذي يقصدون به السير على منوال الإنجليزية أو الفرنسية. وبالنظر إلى تراث الآخرين فإن القاعدة في تقديري هي تأصيل الجديد بمعني توطين العلم الوافد والمعرفة الجديدة، ولا يكون هذا التوطين بالنقل الأعمى أو ما يسميه مصلوح بعجمة العقل بل بتهيئة التربة العلمية التي تؤسس لأبحاث تستجيب لمسائل خاصة بما نعيشه ونعانيه وتأسيس مفاهيم نظرية وإجراءات منهجية تتوسل بروح العلم ولا تقلده وتتخلص من عجمة النقل سواء أكان هذا النقل من القديم أو من الجديد عندنا أو عند غيرنا.

لذا لم تكن محاولة الرائد أمين الخولي محاولة تركض في الهواء ولا منبتة الصلة عن سياقها التراثي وسياقها المعاصر. فقد كانت عينه ممتدة إلى علوم رآها ذات صلة بينية بالبلاغة العربية كعلم النفس والفلسفة والجغرافيا ولم يكن تلقيه للمادة القديمة تلقي الكسول أو القانع بما صنعه أسلافه، واهتدى

بهذين المبدأين: تجديد الأصيل، وتأصيل الجديد. وقد صاغ مقولته الشهيرة " أول التجديد قتل القديم فهما " تجسيدا لهما. وانتهى في ضوئها إلى نقد المادة القديمة الذي جاء في عدة نقاط أساسية هي:

- ❖ طغيان الفلسفة عليها – أي على المادة القديمة – في منهج البحث ولغته وغاياته.
- ❖ انحصار بحثها في الألفاظ في حدود الجملة غالبا
- ❖ إهمال البحث في عنصر المعنى
- ❖ استهداف مطابقة الكلام البليغ لمقتضى الحال مع غلبة النظر إلى الحال – المقام – على أنه عامل خارجي[1] عبدالحكيم راضي/ص24/ التراث بين ثباته في ذاته وتحول النظر إليه/3003 بحث منشور ضمن ندوة بعنوان أسئلة النقد وإشكاليات الواقع. الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر

ومع أن محاولة الخولي لا تخلو من نقد يسعف على تطويرها، فإن موقفه الناقد قد هداه إلى استشراف آفاق العلم المعاصر الذي جعله يمد أفق البحث البلاغي إلى أبعد من نحو الجملة على نحو ما لاحظ سعد مصلوح وهو بصدد قراءة رؤية الخولي لتطوير البلاغة العربية يقول: "يبقى من صيغة الخولي تلك اللفتة الرائعة الداعية إلى مجاوزة البحث البلاغي مستوى الجملة إلى مستوى ما وراء الجملة في الفقرة والنص. ويزيدنا عجبا منها وإعجابا بها أن ذلك كان منه في تاريخ متقادم يعود إلى عام 1931. وأعجب كيف مرت هذه الدعوة ولم تجد لها صدى النظر إلا فيما كتبه "الشايب" في "الأسلوب" أما على صعيد التطبيق فلم نعثر لها على أثر. وكانت هذه الفكرة حرية– إذا وجدت من يتابعها من اللسانيين والبلاغيين -أن تحدث ثورة في الدرس اللساني والبلاغي في العربية تنتقل به من نحو الجملة إلى نحو النص. والمرء يكون أشد إحساسا بعظمة هذه اللفتة حين يعلم أن هذه الفكرة لم تكن قد تحددت لها قسمات وملامح واضحة

في أدبيات الدرس اللساني في أوربا حتى ذلك الوقت، إذ يرجع تاريخ أول مقال معروف نصب نفسه لدراسة البنية النحوية في النص إلى عام 1952 وكان كاتبه زيليج هاريس اللساني المخضرم الذي كان من صناع النقلة من المنهج الوصفي إلى التوليدية التحويلية في اللسانيات الأمريكية. "[2] ص 45/44.

قد يسأل القارىء عن الغاية من هذا الحديث النظري السابق وسؤاله في محله. لأني قصدت به أن أمهد القول لرؤيتي لمقال مهم بعنوان (مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر مقاربة نقدية منشور بكتاب عن الندوة الدولية للغة العربية وآدابها نظرة معاصرة / جامعة كيرالا 2015) كتبه عماد عبداللطيف صاحب الترجمات العديدة من الانجليزية للعربية نذكر منها "موسوعة أكسفورد للبلاغة "بالاشتراك مع آخرين و"مناهج التحليل النقدي للخطاب" و"شعرية المكان في الأدب العربي الحديث" هذا بالإضافة إلى مؤلفاته الجديدة في البلاغة المعاصرة التي يستهدف فيها دراسة خطاب الجماهير والخطاب السياسي وخطاب الثورة، هذا بالإضافة إلى مقالاته وحضوره الإعلامي القوي ومحافل المؤتمرات ذات الصلة بالبلاغة وتحليل الخطاب.

لذا أعد مقاله موضع النقاش أحد أهم أعماله التي قرأتها له لأنه يتناول في هذا المقال الموسع قضية حرية بالنظر والتأمل والمراجعة وهي صلة البلاغة العربية بالحياة المعاصرة وتحديدا – كما يقول – بخطاب الجماهير، ومعوقات هذه الصلة وكيف تحتل مكانها المرجو ومناهج درسها على وجهيها: في الجامعة وفي التعليم العام ثم أخيرا موقعها بين العلوم المعاصرة مثل نقد الخطاب والسيميوطيقا واللسانيات وعلم الأسلوب.

ولم أعرف عن عماد الهزل لا في شخصيته ولا في تصديه للكتابة العلمية ولا في حديثه عن العلم وهو جاد بطبعه مخلص شديد الإخلاص لمشروعه وهو تجديد الخطاب البلاغي عبر شبكة واسعة من العلوم المعاصرة والمعارف عندنا

وعند غيرنا من الأمم. والرجل يمتلك أدوات مشروعه العلمي وقنواته، لذا كانت كتابتي من هذا المنطلق: أن أواجه جده بجد وإخلاصه بإخلاص مماثل.

ومن عادتي في القراءة أن أقف عند عنوان المدونة كما تقول لغة هذا الزمان. لأني أعد العنوان الخطوة الأولى الكاشفة عن خريطة هذه المدونة ويصبح من السهل عندي أن أتتبع دروب هذه الخريطة في ضوء ما استقر في ذهني من العنوان. وعنوان هذه المقالة العلمية المهمة يتكون من شقين: المناهج والموقف النقدي منها. لذا تهيأت منذ البداية إلى أن أقرأ مناهج عدة تناولت الدرس البلاغي العربي لا غيره من الدروس على مدار صفحات هذه المقالة (13صفحة)، ولكني اكتشفت أن مدار الحديث هو على المادة البلاغية العربية القديمة وحدها ومدى ملاءمتها للدرس العلمي المعاصر. وسرد ما دار حول هذه المادة من نقد ومؤاخذات صارت معروفة للقاصي والداني ولم يعد الحديث عنها مجديا لأنه أشبه بالبكاء على اللبن المسكوب وهذا ما انتبه إليه عماد بعد حديث ليس قصيرا عنها، فانتقل إلى تبيين موقع البلاغة المعاصرة وتطورها بين العلوم التي أشرنا إليها. ولأن عماد كتب هذا المقال وبداخله البحث عن صيغة جديدة للبلاغة العربية القديمة، فقد أجل الحديث عما أسماه "تحديات" تحول دون اكتمال جهود تطوير البلاغة العربية إلى ما بعد فراغه من "حديث عن البلاغة المعاصرة".

ولكني في الحقيقة لم أستجب لمخططه هذا فقفزت إلى قراءة هذه التحديات وأضربت صفحا عن موقع البلاغة بين العلوم المعاصرة لعلمي أن هذه العلوم لا صلة لها بالبلاغة وأن من يبحث في موضوعات هذه العلوم، يجد أنها لم تترك للبلاغة موضوعا تعمل فيه إلا الصورة، وقد زاحمتها علوم الصورة فيها. ولم يبق للبلاغة في زمننا هذا موضوع تعمل فيه ولا مكان تحتله. فهل نعلن بذلك سقوط البلاغة؟!! أو أن الدراسات اللسانية والعلاماتية والشعرية والأسلوبية

وتحليل الخطاب قد حلت محل الدرس البلاغي والرؤية البلاغية في الثقافة الغربية، فسجلت بهذا أهمية ما ذهب إليه العرب قبلها، أعني البدء بالدرس اللغوي للنص، وتطوير دراسة الخطاب صوتا ونحوا ودلالة من جهة، ونظما وأسلوبا وعلامة من جهة أخرى؟.[3] منذر عياشي ص 22/ سقوط البلاغة/ مقال منشور بالعدد67 من مجلة البحرين الثقافية يناير 2012

ولعلمي أيضا أن موضوعات هذه العلوم متداخلة متشابكة وكذا منظوماتها الاصطلاحية ومداخلها المنهجية إلى حد الحيرة والاضطراب، وخاصة عندما ننتقل من النظرية إلى التطبيق. ويقيني عن العلم النظام والحد والمصطلح ثم وجود مساحات مشتركة لا تلغي الحدود ولا تسقط معالم التخصصات. وهذا هو نفسه ما أراه خللا كبيرا فيما يطلقون عليه دراسات بلاغية معاصرة أيما كانت مادتها تراثية أو معاصرة من السرد أو من غيره. عندما تقرأ مثل هذه الدراسات على الرغم من جدية مؤلفيها، لا تستطيع أن تفرق بينها وبين النقد الأدبي أو بينها وبين علم اجتماع الأدب أو النقد الاجتماعي أو تحليل المضمون أو المنهج التاريخي أو غير ذلك وتشعر أنها كل ذلك وأكثر. لذلك أفضل أن أرى كل شيء على ما هو عليه. وربما كان فضل هذه الدراسات، فضل المحسن على المحتاج المعسر بالتوسعة عليه في أيام معدودات. وإن صح تصوري هذا – وأعتقد أنه صحيح – فالأمر إذن لا يكون أمر علم نسعى إلى وصله بالحياة بالكشف عن مكنوناته الممتدة عبر الزمن وربطه بأسئلة وقتنا هذا، بل يكون أمر شفقة وإحسان من جهة وأمر رغبة ملحة على أصحابها في الحضور الدائم في بؤرة المشهد المعاصر، وهو بلاشك مشهد مغر وجذاب وواعد بالربح والشهرة والمجد ولكنه أيضا يمضي مع الريح. فالبلاغة – عند هؤلاء – حين تقرأ أعمالهم هي علم العلوم بلا منازع انطلاقا من فرضية الحياة المعاصرة التي ترى أن الصورة هي المسيطرة وأن التواصل بين أنحاء العالم يقوم على الصورة والخطاب بكل

أشكاله وأن الغاية هي الإقناع والتأثير والإبلاغ وتنفرد البلاغة عندهم بقراءة الخطاب بوصفه لغة تتعدد مستوياتها وتزداد البلاغة أهمية كلما اقتربت من "خطاب الجماهير" أي اللغة اليومية في مقابل اللغة العليا، لذا انفتحت الدراسة البلاغية عندهم على مساحات الأنشطة العلمية الأخرى.

وهذا ما دعا عماد إلى رصد ما أطلق عليه "تحديات" حالت دون اكتمال جهود تطوير البلاغة العربية. وتمثلت هذه "التحديات" في عدة نقاط سلبية وجهها كل من انتقد مشروع السكاكي للسكاكي، بمعنى أن هذا النقد تسلط على صورة البلاغة العربية كما صاغها السكاكي، وهؤلاء لم يقرأوا السكاكي قراءة متكاملة أو اكتفوا بقراءة غيرهم له. والسكاكي يمثل حلقة من حلقات الدرس البلاغي معتمدة على ما سبقها من حلقات كانت بدايتها حلقة التأسيس والتكوين في القرنين الثاني والثالث التي أدت إلى حلقة مزدهرة هي نتاج البحث البلاغي في القرنين الرابع والخامس ومشارف السادس. في هذه الحلقات لم تكن البلاغة العربية منفصلة عن صخب الحياة ولا مشكلات المجتمع وقضاياه ولا منقطعة الصلة عن غيرها من العلوم الأخرى المصاحبة لها مثل المنطق والفلسفة. نقول هذا توضيحا لما ورد عند عماد مما أسماه " تحديات" وأعتقد أن عماد يعني بها حالة الدرس البلاغي العربي الحالي في المدارس والجامعات، فذكر أن "تدريس" البلاغة انشغل بالتراث البلاغي العربي وأهمل المنجزات النظرية والتطبيقية المعاصرة مع سيطرة "المفاهيم السكاكية"[4] ص 248 ولعله يقصد بالمفاهيم السكاكية سيطرة كتاب "الإيضاح" وشروحه التي شوهت كتاب السكاكي باجتزاء الخطيب القسم الثالث من "المفتاح" وهو ما عرف بعد ذلك ب"علوم البلاغة" وتلخيصه في صورة تعليمية جامدة. والعجيب أن صيغة الخطيب هي التي سادت وأثرت فيمن قرأ "المفتاح" بعد ذلك وكان نصيب السكاكي الاتهام بالجمود والتحجر وعزل

البلاغة العربية عن الحياة، بينما الحق هو كما يقول مصلوح " وعندي أن المفتاح كان الخطوة الطبيعية المنتظرة بعد كتابي عبد القاهر: الدلائل والأسرار. ومؤدى ذلك أن نظرية السكاكي في "علم الأدب" كانت ثمرة طبيعية لنظرية النظم. بيد أن السكاكي أضر به تلامذته وتابعوه باجتزائهم القسم الثالث من كتابه وقطعه عن سياقه وإحلالهم ثلاثية المعاني والبيان والبديع محل الثلاثية الأصلية التي أقام عليها بناء كتابه وهي ثلاثية الصرف والنحو وعلم المعاني التي تتكامل لتشكل عنده "علم الأدب"[5].

ومن ثم وجب في هذا السياق مراجعة الأحكام النقدية التي صارت مألوفة في أوساط الباحثين في الدرس البلاغي وأوساط المتعلمين في المدارس والجامعات. فالسكاكي وكتابه تعرضا لقراءات ناقصة أو متعجلة أو أيديولوجية أو تابعة منقادة وراء وهم الأسماء والمناصب والعناوين. إن "إهمال المنجز النظري والتطبيقي المعاصر "على حد قول عماد، ليس سببه رجحان كفة الانشغال بالتراث، بل سبب عدم جدواه هو سوء نقله وتقديمه فضلا عن سوء توظيفه وتوجيهه. وفي تقديري يستوي الأمران: المنجز المعاصر والمنجز الموروث من حيث أن كليهما تراث ولا تشفع للمنجز المعاصر معاصرته ولا للمنجز التراثي تراثيته. مادام موقف التلقي غير ناضج ولا صحيح.

ويتصل بما نقول ما ذكره عماد على أنه تحد من تحديات تطوير البلاغة العربية وهو كما يقول "انفصال البلاغة في كثير من دراساتها عن مشكلات المجتمع وتحولها إلى ممارسة أكاديمية شبه منعزلة عن سياقاتها الاجتماعية والسياسية. وتعليل ذلك صعود الحركات العسكرية إلى سدة الحكم وتقييد الحريات الأكاديمية"[6] ص 249. وأعتقد أن عماد في هذه المسألة يعيد إنتاج شرط تلقي البلاغة العربية في ضوء تلقيه "المنجز النظري والتطبيقي المعاصر" وأعني أنه يفرض رؤيته المعاصرة المتأثرة بدوائر تحليل الخطاب النقدي وعلى نحو

أخص تحليل خطاب الجماهير على واقع الدرس البلاغي وهو درس تراثي تقليدي لم تتطور أدواته البحثية ولا دوائره العلمية من أساتذة وطلاب وباحثين ومكتبات ومصادر وحلقات نقاشية.

وهذا التطور في أساليب البحث العلمي وتحليل الخطاب في الغرب له سياقاته الاجتماعية والثقافية التي لم تتوفر في بلاد أخرى، ولا يكفي أبدا نقل الكتب وما يشوب هذا النقل من نقص واضطراب وتشويه المفاهيم. وليس صحيحا تعليل عزلة الدرس البلاغي عن "خطاب الجماهير" بصعود الحركات العسكرية إلى سدة الحكم وتقييد الحريات الأكاديمية. وإذا صح ذلك فلماذا أحرز النقد الأدبي والعلوم الإنسانية الأخرى داخل الجامعة المصرية وخارجها تقدما كبيرا في فترة عبدالناصر وما سبقها وما تلاها؟ ولم يزدهر النقد وغيره من العلوم وحده بل ازدهر قبله وصاحبه ازدهار أشكال الإبداع الأدبي في الشعر والرواية والقصة والمسرح وكل فنون الفرجة الأخرى. ومازالت هذه الأعمال التي أنتجت في هذه الفترة من نقد وفكر وإبداع تمثل أهم الأعمال في تاريخنا الحديث والمعاصر ونالت تقدير الدوائر المحلية والعربية والعالمية ومنها تتويج نجيب محفوظ بجائزة نوبل.

ولم تكن البلاغة العربية بدعا من البلاغة في تاريخ الأمم الحية حين ارتبطت "بالنصوص العليا" ارتباطا أساسيا وجوهريا. فقد ارتبطت البلاغة لدى الأوربيين بالنصوص العليا طوال تاريخها ولم تتوجه لدرس "خطاب الحياة اليومية" إلا بعد ازدهار الدرس اللغوي على يد دي سوسير وما صاحبه من نشوء دراسات أسلوبية توجهت وجهتين وجهة إلى دراسة "النصوص العليا" ووجهة إلى دراسة "خطاب الحياة اليومية" الذي بدأ على استحياء على يد شارل بالي ثم انتقل نقلته النوعية الكبيرة على يد اللغويين الجدد في أوربا وأمريكا وأخذ صورته

المعروفة فيما سمي بالتحليل النقدي للخطاب وخروج درس الاستعارة من اللغة إلى التفكير وتجليها في كل أشكال الخطاب.

وليس من المقبول في تاريخ الأمم الكبرى أن تسير أمة سير أمة أخرى وتحذو حذوها. فمع أن التراث اليوناني القديم كان قد استوى على عوده وضرب بجذوره في أعماق الأرض قبل وجود الحضارة العربية الإسلامية بقرون، فإن نقل هذا التراث للعربية وأهلها لم يكن لمجرد النقل والزهو به بل كان مرتبطا بتلبية الحاجة المعرفية لتطوير منهج البحث ومفاهيمه في بيئة كانت حاجتها أشد إلى توطيد أساليب الحجاج والإقناع والتأثير في مواجهة خصوم العقيدة وخصوم الفكر وتوطيد أركان الحكم. ولعل هذا يفسر حاجتهم إلى أرسطو ومنطقه وخطابته أكثر من حاجتهم إلى نظريته في المسرح وعدم التفاتهم بالقدر نفسه إلى أفلاطون وجمهوريته.

والالتفات إلى مسألة "خطاب الجماهير " ومواكبة الدرس البلاغي لكل أنواع الخطاب لا يكون التفاتا فرديا ولا منعزلا عن مسألة تطوير منهج الدرس البلاغي والنقدي في الدوائر الأكاديمية المصرية والعربية. وهذا التطوير بدت بشائره قوية منذ بداية الثلث الأول من القرن العشرين كما قدمنا سلفا وتوطدت دعائمها في تقديري على يد علمين من أعلامنا هما: شكري عياد وسعد مصلوح. الأول منهما امتلك ناصية الفكر البلاغي والنقدي منذ بدايته الأكاديمية في الأربعينيات من القرن الماضي بعكوفه على درس بلاغة أرسطو ونقده وآثارهما في الفكر البلاغي والنقدي العربي وظل وفيا لمشروعه يطوره وينميه حتى أصدر كتبه (مدخل إلى علم الأسلوب 1982م - اتجاهات البحث الأسلوبي 1985م -دائرة الإبداع: مقدمة في أصول النقد 1986م – اللغة والإبداع: مبادئ علم الأسلوب 1988م) والثاني أفاد إفادة كبرى من تخصصه الأصيل في اللسانيات المعاصرة وتعمقه في الاطلاع على مصادره الكبرى في الشرق والغرب قديمها

وحديثها في عقد صلة طبيعية غير متكلفة بين الدرس الأسلوبي والدرس اللساني من جهة، والدرس البلاغي العربي مما مكنه من تجديد الأصيل (البلاغة العربية في صورة المفتاح للسكاكي) وتأصيل الجديد وهو الدرس الأسلوبي اللساني وتجلى ذلك في أبحاث نظرية وتطبيقية تشرح وتطبق المقولات النظرية بوصفها ثمار المنهج الأسلوبي على أسس لسانية على نصوص واسعة من الشعر وغيره وعلى مدارس نقدية متعددة وقد جمع هذه الأبحاث في كتب معروفة منها (الأسلوب: دراسة لغوية إحصائية 1980م – في النص الأدبي: دراسة أسلوبية إحصائية 1993م – في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية 2003م).

أعتقد أن الموضوع الأساس لهذه المقالة هو كيف نطور الدرس البلاغي العربي؟ وليس سرد أو نقد مناهج الدرس البلاغي. ولذا أتخيل أنه لا مانع عندي لو أني كاتب هذا المقال من أعيد النظر في عنوانه ليكون (تطوير الدرس البلاغي العربي القديم) تمييزا له عن "الدرس البلاغي العربي المعاصر" كما جاء في صياغة عماد بما يوحي به هذا الموصوف والصفة من الشمول والإطلاق. وينبني على هذا الذي أراه تناول جهود كل من رادوا هذا السبيل ابتداء من محمد عبده مثلا وانتهاء بإنجاز سعد مصلوح إن لم يكن قد أتى بعده أحد. ولا مانع من تناول جهود التجديد في تقديم الدرس البلاغي للطلاب في المدارس ابتداء من عشرينيات القرن الماضي إلى اليوم وبذا نكون قد وضعنا أيدينا وأيدي الباحثين على مسارين مهمين من مسارات التجديد والتطوير: مسار التجديد الأكاديمي ومسار التجديد التعليمي أو التربوي.

وبدلا من سرد تحديات التطوير أو "التحديث" على حد قول عماد على حدة، أفضل أن نتحدث عن مشروع كل رائد ومنه نعرف التحديات والمشترك والمختلف بين هؤلاء الرواد والمناهج التي اتبعوها والخلفية المعرفية "**الأصول المعرفية**" التي حكمت كل واحد منهم. وعندها كنا سنكتشف أن كل

محاولات التجديد أو التحديث كانت صدى لصوتين متمايزين: صوت الطبقة المصرية الوسطي وفكرها الداعي إلى البحث عن الأصول وعن المعاصرة، والصوت الثاني هو الصوت الوافد عبر البحر المتوسط أعني الثقافة الأوربية بكل روافدها في فرنسا أو إيطاليا أو المانيا أو بريطانيا وما صوت سلامة موسى ببعيد. ولننظر إلى ريادة الخولي في التجديد واعتمادها على الفكر الرومانسي الذي يعتد بالفرد والفردية في الإبداع والفكر والنظرية ولعل هذا ما دعا الخولي إلى إعادة النظر في مسألة "مطابقة الحال" وأضاف إليها الحال الداخلي الذي تطور بعدها إلى السياق بكل عناصر اللغوية (المقالية) و(الحالية).

ويلوح لي أن الحديث عن التطوير والتحديث لا يتطلب النظر إلى التراث البلاغي من خارجه. فمسار البلاغة العربية يختلف في كثير من سياقاته عن البلاغات (إذا صح جمع بلاغة على بلاغات) الأوربية التي لا أعدها بلاغة واحدة نشأت في ظروف تاريخية اجتماعية وثقافية واحدة أو مشتركة. فلدينا أمم أوربية لكل أمة منها لغتها وهي لغات قريبة العهد بالقياس إلى عمر لغات مثل العربية، ولم تكن هذه الأمم عريقة في التحضر ولا في المدنية ولا حتى في اعتناقها الأديان الكتابية، وعندما اعتنقت الدين المسيحي لم يكن كتاب المسيحية وحيا محفوظا من السماء التي حفظت القرآن ولم تقم حوله حضارة تضمنت علوما عديدة. وتبلورت بلاغتهم في ظل البلاغة اليونانية التي طوروها وأقاموا عليها فكرهم البلاغي منذ أن عرفناه إلى الآن. وقد نشأت بلاغة اليونان – قبل تبلور علوم اللغة ونضجها، وعلوم اللغة هي مدار علم البلاغة وخاصة النحو والصرف – في ساحات القضاء والمنازعات السياسية والجدل حول دور الفلاسفة والقادة والسوفسطائيين.

هذا السياق التاريخي الثقافي يختلف عن نظيره العربي الذي التف حول نصين كبيرين (الشعر والقرآن) شكل البحث فيهما مباحث البلاغة العربية.

ووجه الاختلاف كما قلت في وحدة اللغة ووحدة النصين اللذين شغلا البحث البلاغي في وقت مبكر أعني الشعر والقرآن. ولم يكن الاقتراب من هذين النصين ميسورا بشكل علمي ولا منهجي إلا بعد نشأة البحث اللغوي وما سبقه من جمع اللغة وتدوينها ولم يكن ظهور "العين" ولا "الكتاب" صدفة. فالصدف لا تصنع التاريخ ولا تصنع تاريخ العلوم. ولن نتحدث عن جمع الشعر والمجموعات الشعرية ولا شرح دواوين الشعراء في وقت مبكر ولا عن كتابة "معاني القرآن" ولا عن "مجاز القرآن" ولا عن فيض كتابات الجاحظ في "البيان والتبيين" والحيوان " – كتبهما في آخر حياته – عن لغة العرب وخطبائهم وخطبهم وعاداتهم في القول واختلاف طرق البيان وعن صور المجاز وتداخل البلاغة مع الفصاحة واختصاص كل بيئة بلغة خاصة، لن نتحدث عن كل ذلك مع أهميته وضرورته بما يؤكد أن البلاغة العربية لم تنشأ في أحضان النص الأدبي معزولة عن الحياة وصخبها، بل إن اضطرابات الحياة وصخبها أفرز المباحث البلاغية الكبرى التي وجدناها بعد ازدهار فنون النثر وما كتاب "الصناعتين" ببعيد ودلالة التسمية واضحة مثل دلالة كتاب "البرهان في وجوه البيان". وليس من المصادفة أن يكتب الجاحظ الذي عاش ما يناهز قرنا إلا قليلا من الزمان كتابيه المذكورين في آخر عمره وهو مشلول. فلو لم يزدهر البحث اللغوي وتتضح معالمه في القرن الثالث، ما كان كتاب "البديع" لابن المعتز وما كان قبله كتاب "تأويل مشكل القرآن" لابن قتيبة وقد توفي عام 276 هجرية وما كانت منجزات ابن جني ومنجزات مفسري إعجاز القرآن الخطابي والرماني والباقلاني وغيرهم من أعلام القرن الرابع، بل ازدهار البحث اللغوي واتضاح معالمه في القرن الثالث الهجري، ساعد كاتبا هو في أصل تكوينه لغوي بصري هو الآمدي في أن يدلي بدلوه في أعماق خصومة نقدية نشأت في القرن الثالث

وتبلورت على يديه في القرن الرابع، أعني الخصومة النقدية حول أبي تمام والبحتري.

خلاصة ما أريد تأكيده هو أن البحث البلاغي العربي نشأ وتطور بعد ازدهار البحث اللغوي، وهذا يختلف عن البحث البلاغي عند اليونان الذي نشأت خصوماته في ساحات القضاء ومكائد السياسة والاحتفال بأيام الآلهة، ولم يتأسس على نظرية نحوية أو لغوية، بل تأسس على تأملات فلسفية صاغها أفلاطون وأرسطو، ولم يزدهر البحث اللغوي ازدهاره المعروف والمشهود في الغرب – إذا عددناه كتلة سكانية ولغوية واحدة – إلا بعد منجزات دي سوسير المتوفى عام 1913م.

الأمر الثاني وهو في تقديري أمر حاسم أن مبحث المجاز ليس واحدا في بلاغات الأمم لارتباط اللغة بالثقافة وطوابعها المحلية، فما نعده مجازا هنا قد لا يكون مجازا هناك، وهذا ما سبب مشاكل في التواصل والتأويل بين الأمم. الأمر الثالث أن ازدهار علوم اللسانيات والتواصل وتحليل الخطاب والأسلوب وغيرها من العلوم لم يكن من أجل تطوير البلاغة عندنا أو عندهم، بل إنه حدث استجابة لثورة الاتصال وما صحبها من علوم اللغة التطبيقية والرغبة في تنميط شعوب الأرض على غرار النموذج الأوربي والأمريكي، ثم الثورة المعرفية الهائلة وما أدت إليه من ظهور اقتصاد جديد لم تعرفه البشرية من قبل هو اقتصاد المعرفة. وهل من المصادفة أن عنوانا لكتاب اسمه "اقتصاد اللغة" كل ذلك أدى إلى شحوب – إن لم نقل اختفاء البلاغة من خريطة العلوم المعاصرة في الغرب - قد يجدون لها اسما آخر ولكن هل بإمكانهم إيجاد مساحة جديدة للبلاغة لم يطأها علم من العلوم المشار إليها؟

وعلي أية حال، فالبلاغة العربية ليست نبتا فريدا بين الناس ولا كائنا يعيش في كهف ولا هي عصية عن التواصل مع متطلبات الساعة ولا هي مستعلية

على غيرها باحتضان القرآن والشعر لها ولا أصابها العقم والوهن. فإذا كان منطق علومنا التي أشرنا إليها في هذه المدونة هو انفتاح الحدود وتداخل المفاهيم وتبادل الأدوات، فلماذا ننكر كل هذا على البلاغة العربية؟ وإذا كانت وحدة التحليل قديما هي الجملة ونحوها – وهذا ليس على إطلاقه وفيه نظر وأبحاث تنكر ذلك – فإن وحدة التحليل الآن هي النص، والنص شبكة معرفية ولغوية تستعصي على مدخل واحد أو عدة مداخل، ومن ثم يمكن تطوير أدوات التحليل البلاغي سواء على مستوى التركيب أو الدلالة اعتمادا على النظر الجديد لكفاءة الأداء اللغوي للعربية، وعلى النص أيما كان نوعه.

قدم عماد ثلاثة أسس لتطوير الدرس البلاغي العربي هي:

- **مراجعة أسس العلم من حيث وظيفته ومادته وتاريخه وجمهوره.**
- **مراجعة أدوات العلم من حيث لغته ومناهجه.**
- **مراجعة علاقته بمحيطه المعرفي.**

وهي أسس صالحة لتطوير كل علم من العلوم بمعنى أنها أسس نظرية عامة تركز على منهج العلم ومادته بمعنى مجاله المعرفي كما تركز على علاقته بغيره من العلوم وانتقل بعد ذلك من العام إلى الخاص فوضع خمسة محاور إذا تحققت تحقق تطوير البلاغة العربية كما يرى وهي:

- دراسة بلاغة الجمهور في الخطابات العامة
- النظر في المادة البلاغية المدروسة ومراجعة مناهج دراستها
- النظر في وظيفة علم البلاغة
- جمهور علم البلاغة
- مراجعة جذور علم البلاغة والكشف عن البلاغات المهمشة

وبغض النظر عن مدى ارتباط هذه المحاور الخمسة بالأسس النظرية العامة – إذ المفروض أن تنبثق منها – فإن هذه المحاور تدور في فلك اتجاهات

التحليل النقدي للخطاب بوصفه بديلا للبلاغة العربية عند عماد أو على أحسن الفروض تطويرا لها وصونا من الانقراض (**وقد حاولت في دراسات سابقة أن أقدم مقترحا للدمج بين البلاغة العربية وتحليل الخطاب**) على أساس إضافة بعد استجابة الجمهور، أو بديلا للبلاغة عند الأوربيين والأمريكان (**إن البلاغة يمكن أن تكون عنوانا بديلا لتحليل الخطاب إذا نظرنا إليها بوصفها علم الخطاب.** فان دايك). والتحليل النقدي للخطاب هو اتجاه من اتجاهات التحليل اللغوي للخطابات المكتوبة والشفوية والمرئية وليس علما وهدفه التركيز على كشف العوار في خطاب السلطة من زاوية علاقته بالجماهير ويخضع المحلل لعقيدته أو أيديولوجيته ولتحيزاته السابقة على تناول الخطاب وقد تمتد هذه التحيزات خارج الحدود فتأخذ موقفا عنصريا مثلما هو الحال في موقف الغرب في العموم من السامية الذي يعني التحيز المسبق لإسرائيل أو الذي يعني حقوق الإنسان ويقصد الإنسان الغربي أو الأمريكي. فالخطاب – في نظر التحليل النقدي – استخدام اللغة بشكلها المقروء والمكتوب بوصفه شكلا من أشكال الممارسة الاجتماعية. وكما يقول منظرو تحليل الخطاب عنه "إنه لا يقدم منهجا تحليليا منضبطا أو إطارا مغلقا لمعالجة الخطاب، بل يقدم منظورا لمقاربته. فهو ليس منهجا، بل بالأحرى حقل معرفي يتسم بالمرونة والتنوع الهائلين" إلى أن يصلوا في وصف هذه المرونة إلى قولهم ". ..... إلى حد يبدو معه الحقل المعرفي لتحليل الخطاب متسما بميوعة لم يشهدها حقل معرفي مماثل تقريبا". ومع ذلك فإن عماد يرى أن هذا الحقل هو أنسب الحقول المعرفية لتطوير البلاغة أو دمجها معه بشرط إضافة بعد استجابة الجمهور. وهذا البعد هو محور أو خلاصة المحاور الخمسة التي يقترحها لإنقاذ الدرس البلاغي العربي – في صيغته السكاكية التي لا تغيب عن وعي عماد أبدا – مما تردى فيه من غيابات المعيارية والقوالب الجاهزة والاقتصار على تناول الجملة والبحث عن أصل المعنى.

ومع انتقاد عماد لتحليل الخطاب – وهو انتقاد المحب – فإنه لا يرفضه كما رفض الأسلوبية وصلتها بالبلاغة العربية منذ مطالع القرن العشرين التي نمت وتبلورت -أعني الصلة -كما يقول عبر ثلاثة عقود على الأقل "**كي تعلن بجلاء أن الأسلوبية هي وريث البلاغة العربية. وفي سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين أصبحت الأسلوبية صرعة العصر وقناع الدرس البلاغي** "واتخذت هذه العلاقة بين الوارث والموروث شكلا مجازيا استعاريا هو "**الجدة–الحفيد**" لتعلن إجهاز الوارث على الموروث نهائيا و"**تشي ضمنيا بأن البلاغة قد سلمت للأسلوبية مفاتيح حقلها المعرفي** "

ولعله قد بدا من هذه المراوحات الفكرية التي يعلنها عماد أنه يمهد لإعلان ارتباط البلاغة بتحليل الخطاب وليس بمجالات معرفية أخرى تناولها عماد مثل الحجاج – أليس هو الآخر صرعة العصر -أو علم العلامات أو لغة النص أو غير ذلك من حقول معرفية متحركة مثل الكثبان الرملية في الربع الخالي. وهذا يعني أن أمر التجديد أو التطوير الذي ينشده عماد وفريق عريض من المجتهدين في المشرق والمغرب العربيين ينبغي أن تكون بدايته دائما من الشاطئ الآخر مع أن المفعول به – البلاغة العربية – والمستهدف ليس من سكان هذا الشاطئ ولا من إنتاجه الثقافي أو الحضاري، وأن مياها كثيرة قد جرت في نهر التجديد ولا يمكن إغفالها حتى وإن اختلفنا مع أصحابها. وينبغي أن نبدأ من نقد منجزات هؤلاء المجددين لنبني عليها لا أن نبدأ دائما من نقطة البداية. وأعني بهؤلاء رجلين لا يستطاع إنكار اجتهادهما ولا تجاوزه ولا غض الطرف عنه تحت أي عذر، هذا إن كنا نريد توطين المعرفة العلمية وتأسيسها كما يفعل غيرنا ممن نتخذهم قدوة ومثالا من كتاب الغرب ومفكريه.

هذان الرجلان هما شكري عياد وسعد مصلوح وقد أشرت إلى "مصادرهما" في الفقرة السابقة. لقد أضحى ما كتبه هذان الفقيهان الكبيران

فيما نحن صدده مصدرا. والعودة إلى هذه المصادر هي نقطة البدء في حوار تجديد الدرس البلاغي. لم يكن أحدهما أو كلاهما مقطوع الصلة بالفكر الإنساني ولا بمنجزات العقل البشري على امتداد تاريخه فيما أرادا إنجازه.

ولم يكن هاجس التطوير عندهما منبت الصلة بموضوع التطوير ولا بسياقه الثقافي الخاص، كما لم يكن منبت الصلة عن مستجدات العلم المعاصر وأعني العلم اللغوي والأدبي في أبهى تجليه: علم اللغة وعلم الأسلوب بكل اتجاهاته.

فقد بدأ عياد بنقد البلاغة العربية كما تجلت عند السكاكي بوصفها منهجا مستقلا لاستجلاء عناصرها والكشف عن العلاقات الكامنة بين أجزائها. وهدفه هو "وضع البلاغة العربية على الخريطة العامة للدراسات الأسلوبية كما نعرفها اليوم" ويقف هذا المنهج بجوار المناهج الأسلوبية المعاصرة في كتابه " اتجاهات البحث الأسلوبي " لذلك تجنب عياد " تقديم الحجج على استحقاق وضع البلاغة العربية على خريطة الدراسات الأسلوبية" كما تجنب البحث عن سوابق لأفكار أسلوبية في البلاغة العربية " وبذا لم يقع في فخ الدفاع عن موروث بلاغي، ولم يقع في فخ إسقاط الحديث على القديم ولا القديم على الحديث، وراح ينظر لكل إنجاز في ضوء معطيات عصره وفي ضوء الأسس المعرفية التي شكلته. ومن ذلك وعيه بحقيقة الإطار المعرفي الذي شكل البلاغة العربية والإطار المعرفي للدراسات الأسلوبية المعاصرة الذي لم يفرضه على البلاغة العربية واحتفظ لها باستقلالها " إن الحديث عن دخول البلاغة العربية تحت مفهوم علم الأسلوب المعاصر، أو اعتبارها سلفا لعلم الأسلوب يعد حجرا على حرية البحث في المستقبل " ص 213/ اتجاهات البحث الأسلوبي

وكما تناول الاتجاهات الأسلوبية المعاصرة، تناول منجز البلاغة العربية كما تجلت عند السكاكي من حيث المنهج والموضوع مستبعدا البحث

التاريخي. فأما المنهج فقد حدده بمجموع القواعد التي يسترشد بها المؤلف حين يجمع مادته وحين يحللها ورأى أن السكاكي قد اهتدى بالنحو من جهة وبالمنطق من جهة أخرى وقد أدى به هذا الاهتداء إلى الجمع بين مبدأين منهجيين هما القياس والاستقراء. والقياس مرتبط بفكرة النظم كما وضعها عبد القاهر الجرجاني. فالنظم هو الكلام النفسي الذي نراه في الصياغة اللغوية أي أن اللغة تأتي على منوال الكلام النفسي الذي يظل ثابتا ويمكن التعبير عنه بطرق مختلفة من الأساليب. ولكن هذا القياس يخضع في نهاية الأمر للغة وأساليبها التي تخضع للاستقراء وهو تتبع للمادة اللغوية وتشكلاتها. ويطرح عياد في هذا الموضع سؤالا مهما وهو كيف يمكن الجمع بين ما هو عقلي ونفسي من جهة وبين ما هو مادي حسي من جهة أخرى؟ أي كيف يمكن الجمع بين القياس والاستقراء عند السكاكي في دراسة الظاهرة الواحدة وهي الظاهرة البلاغية كما تتجلى في اللغة؟ ومغزى هذا السؤال هو كيفية الجمع بين ما هو عقلي عام وما هو جزئي خاص؟ فإذا كان النظم يترجم الكلام النفسي، فإن هذا الكلام لا ينشأ في فراغ من السياق الاجتماعي والثقافي ويرتبط قائله بما عرفته البلاغة العربية بمقتضى الحال والمواقف الفردية التي تخرج عن كلية المنطق وشموليته. ويعتمد السكاكي على الذوق في فك هذا الارتباط. والذوق عنده هو ملكة مدربة على التعامل مع الكلام لتمييز جيده من رديئه وهي كما يرى عياد أشبه بالحدس وهو "ضرب من الحكم العقلي الناشئ عن مراعاة عدد كبير من العوامل دفعة واحدة" وخطورة هذا اللون من الحكم أنه حكم توقيفي بمعنى أنه غير قابل للتعليل أو التفسير.

أما الموضوع، فهو الظاهرة التي تخضع للدرس البلاغي أو ما نسميه بموضوع العلم وهو هنا ليس الشعر والقرآن فقط وإن كانا هما النصين اللذين يمثلان بؤرة الدرس البلاغي العربي القديم. وفي هذا الشأن فإن عياد يرى أن

السكاكي لم يقف عند حد هذين النصين وما اقترب منهما من نصوص كبار الكتاب، ولكنه افترض لمبادئه البلاغية أمثلة مما يجرى على ألسنة الناس وحصر موضوع العلم في قوله "تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره، ليحترز بالوقوف عليه من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره" ويعترض عياد على تحديد الظاهرة البلاغية بالإفادة والاستحسان لأن هذين الحدين جعلا الدرس البلاغي محصورا من جهة بين علم الدلالة و بين علم الأسلوب من جهة أخرى. وانتهى عياد من نقده المنهج والموضوع إلى إمكان وصل المباحث الأسلوبية في البلاغة العربية بالنقد الأسلوبي المعاصر ولتحقيق هذه الغاية اتجه إلى الكشف عن الفكر الأسلوبي في التراث النقدي والبلاغي ابتداء بابن قتيبة ومرورا بالرماني والخطابي والباقلاني وصولا إلى ابن خلدون، ثم توقف عن أهم محاولتين سبقتاه إلى تجديد الفكر البلاغي وهما محاولة أمين الخولي ومحاولة احمد الشايب.

أما الخولي فيرى عياد أنه كان حريصا على الجمع بين الموقف القديم والموقف الجديد اعتمادا على كتاب "الأسلوب الإيطالي" لباريني الذي يتطلع إلى تجديد البلاغة الأوربية القديمة في ضوء المفاهيم الرومانسية وأن الخولي انتهى إلى أن البلاغة فن رغم حرصه على الموضوعية ولم يفرق بين الفن البلاغي والعلم البلاغي. أما الشايب فقد حاول ربط البلاغة بالنقد الأدبي ولم يقدم تحليلا لمكونات البلاغة حتى يمكن وصلها بالنقد واعتمد على مفهوم ابن خلدون للأسلوب الذي يفصل بين الفكر واللغة.

هذا المسلك التأسيسي الذي انتهجه عياد في التجديد أضفي على عمله أصالة وبعدا علميا لا يمكن تجاهله. فأما الأصالة فواضحة من مسلكه بناء فكره المستقل اعتمادا على رؤيته الخاصة لحركة الفكر الإنساني على امتداده في الزمان والمكان، وأما العلمية فتبدو في قدرته على استثمار كل

منجزات الفكر النقدي والأسلوبي والبلاغي في بناء علم يجوز لي أن أسميه "علم الأدب" يعتمد على وصل منجزات الاتجاهات العلمية في دراسة الأسلوب المعتمدة على الدرس اللغوي في أبهى صوره بالنقد الأدبي من حيث كونه علما قادرا على تغطية الأسئلة التي لا تجيب عنها الأسلوبية ولا علم اللغة في دراسة الأدب بكل أشكاله وصولا إلى كتابة تاريخ أدبي قائم على تحديد الظواهر والنماذج والمثل والأشكال والكشف عن القيمة. وقد استقر لدى عياد أن النقد الأسلوبي لا يمكن أن يستوفي جوانب العمل الأدبي كلها. فعلم الأسلوب والنقد علمان متكاملان لا يمكن لأحدهما أن يلغي الآخر. ص57/دائرة الإبداع/ 1986

وأدعو الباحثين إلى النظر العلمي الدقيق والمتأني في "تراث عياد" الذي أنجزه ابتداء من أوائل الثمانينيات من القرن العشرين وأعني كتبه الأربعة التي ذكرتها في موضع سابق من هذا البحث. هذه الكتب تمثل خلاصة سعيه العلمي لتأسيس رؤيته العلمية في تطوير البلاغة ووصلها بنقد الأدب وتحليله.

وأما سعد مصلوح، فإنجازه إنجاز غير مسبوق تهيأت له سبل الإتقان والتدقيق العلميين من صبر على مكاره العلم وعزوف عن صخب الحياة وأضوائها وابتعاد عن جماعات المنافع والمصالح المتبادلة، واتصال بمظان العلم حيث هي وتلقيها تلقيا مباشرا لا عن وسيط ولا عن سماع ولا عن ظن ولا عن رغبة في الشهرة والأضواء. فقد مكث الرجل يبني معارفه بعلوم اللسانيات المعاصرة بناء نقديا واعيا بما يأخذ وما يترك حتى صار بعد عقد من الزمان قضاه في صحبة هذه العلوم واحدا من أهم الثقاة في علم لغة النص أو كما نقول نحو النص شافعا له بنظر موسوعي لمجموعة من المعارف التاريخية والنقدية والنفسية وغيرها مما يحتاجه ممن يقدم على مواجهة النص الذي نعده شبكة واسعة من المعرفة.

هذا العالم الرصين شغلته البلاغة العربية وقد شيعها المشيعون إلى مثواها الأخير كما رفض مقولة موت الدرس الأسلوبي وعدم جدواه. فقدم منجزا علميا بهيا وناصعا سواء في مجاله النظري أو في مجاله التطبيقي. وتكفي أبحاثة الفارقة في الدرس الأسلوبي التي كشف بها نسب النص وشيوع الاستعارة والصفات والأفعال وصلة كل ذلك بالمذاهب النقدية مثل الكلاسيكية أو الرومانسية. كما تكفي قراءته الفارقة لمنجز السكاكي وقد أهالوا عليه الرماد بعد أن رجموه بالحجر. وقد قدمت – في دراسة لي سابقة – جوانب من هذه القراءة التي أعدها مثالا للتجديد والوصل المعرفي مع التراث العربي البلاغي.

والجامع بين العلمين – شكري وعياد – تجديد الأصيل وتأصيل الجديد على نحو ما رأينا عند عياد وعلى نحو ما نرى عند مصلوح.

أما مصلوح فمع أني قدمت منجزه في تطوير الدرس البلاغي في مقال سابق على هذا المقال، فإن مقتضيات المقال والمقام الحاليين تفرض علي أن أوضح جوانب مهمة من هذا المنجز الذي قدمه مصلوح. وتتصل هذه الجوانب بطبيعة المنهج الذي استند إليه في معالجة "مشكل العلاقة بين البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية" كما سماها. ذلك أن غاية هذا المقال الذي بين أيدينا وفي هذه الفقرة تحديدا، هي وضع العلامات الهادية في هذه المسألة. وايدنا ما ذهبنا إليه في أمر التجديد بهذين المنجزين.

وقد انتهج مصلوح خطوتين مهمتين بالإضافة إلى ما قدم في مشروعه. الأولى جاءت تحت عنوان جانبي يمثل إحدى فقرات بحثه وهو "مفتاح المفتاح" تناول فيها الخطأ الجوهري الذي وقعت فيه صيغ التجديد السابقة حين شرعت في قراءة السكاكي. كما تناول أهم النظرات الذكية التي عابت عن نظر قراء السكاكي قديما وحديثا. ونجمل هذا الأمر في عدة نقاط هي:

- يقول مصلوح: "أما صيغ التجديد فإن الآفة التي أصابتها والعقم الذي منيت به، إنما كانت – في رأينا من جهتين – أولاهما: مفارقتها لمذهب المفتاح بالكلية، واستدبارها إياه، وفهم المفتاح من خلال شروحه وتلخيصاته. والأخرى غياب البعد اللساني وحصرها (يقصد صيغ التجديد) في دائرة النقد المحض". ص51
- انصرف المشتغلون بعلوم البلاغة عن قسمي الصرف والنحو وعن الفصول التي عقدها السكاكي لعلم الاستدلال والشعر، واتجهوا إلى علمي المعاني والبيان. واحتشد السابقون والمحدثون -بعبارة مصلوح -لتقديم القسم الثالث من المفتاح اعتمادا على الشروح والتلخيصات والحواشي.
- أن السكاكي لم يهدف إلى إيراد حقائق الصرف والنحو، ثم المعاني والبيان ووجوه التحسين، ثم الاستدلال والشعر لما هي فيه، بل عالجها جميعا بوصفها بنية منهجية متماسكة تشكل ملامح علم سماه الإمام السكاكي "علم الأدب".
- أن الإمام لم ينص نصا على أنه يؤلف كتابا في "علم البلاغة" ولم يستخدم "البلاغة" و"صناعة البلاغة" إلا ليشير بهما إلى القدرة التي يتمتع بها البلغاء وتجعل من كلامهم مادة صالحة للدراسة في "علم الأدب" ولم يفكر في وضع تعريف "لعلم البلاغة" وإنما عرف البلاغة.
- وعى الإمام – وهذه نكتة عظيمة – أن المشتغلين "بعلم الأدب" تتفاوت مراتبهم تبعا لتفاوت حظوظهم من المعرفة بهذه العلوم المختلفة التي ذكرناها سلفا على أنها تمثل منظومة منهجية متكاملة.
- نظر الإمام إلى هذه العلوم – الصرف والنحو والمعاني والبيان والاستدلال والشعر وما يتبعها من علوم مساعدة كالصوتيات – بوصفها منظومة

منهجية تتوالى عناصرها المنهجية المكونة لها في علاقة منهجية حتمية لا يتم الدرس الصحيح لنوع الأدب إلا باجتماعها

- نوع الأدب عند السكاكي هو ظاهرة مركبة. لذلك ينبغي أن يكون العلم الناظر فيها وهو علم الأدب علما يقوم على تعدد الاختصاص. ص57/56

أما الخطوة الثانية والمهمة فهي التي انتقد فيها صيغة السكاكي نقدا يهدف إلى تبيين ما فيها من عناصر صالحة للاتصال بالمنجز الأسلوبي اللساني الحديث وهو الغاية الكبرى من عمله. فبدأ برصد ما يزيد عن عشرة وجوه تختلف بها كل صيغة عن الأخرى اختلافا بينا وكاشفا عن اختلاف السياق المعرفي المنتج لكل منهما ثم انتقل بعد ذلك للإجابة عن سؤال يمثل حبة العقد وهو ماذا بقي من الصيغة السكاكية صالحا للأخذ به والانتفاع به موصولا بالدرس اللساني الأسلوبي الحديث بكل اتجاهاته؟ وأعطى مصلوح لهذه الخطوة – مثل سابقتها – عنوانا جانبيا يمثل في تقديري خلاصة مسعاه في هذه الفقرة الأخيرة من بحثه وهو" تقويم لساني للبلاغة العربية "لن نقدم هنا جوانب الاختلاف بين البلاغة العربية ونظيرتها الأسلوبية، فهي معروفة لمن له قلب أو ألقى السمع وهو بصير ونقدم إجابته على السؤال المطروح وهو ماذا نأخذ من صيغة السكاكي بعد نقدها؟

ينطلق مصلوح من نقطة التقاء بين البلاغة واللسانيات وهي اجتماعهما على درس مادة واحدة هي لغة الأدب. وتحتاج هذه المادة أو اللغة الأدبية إلى منهج علمي للدرس قدم منه السكاكي جانبين مهمين هما:

- الصيغة الكبرى أو "علم الأدب" وهي منظومة تحليلية تتألف من الصرف والنحو والمعاني والبيان مع مقدمة صوتية تسبق الصرف ومكملات تتمثل في علم الاستدلال والشعر.

- الصيغة الصغرى وهي علم المعاني بمكوناته: خواص التراكيب. المبحث البياني. المبحث التحسيني. وهذه الصيغة فرع من الأولى وهي التي أطلق عليها المتأخرون " علم البلاغة".
- هاتان الصيغتان اللتان قدمهما السكاكي أو بمعنى أوضح قدمتهما قراء مصلوح العلمية للسكاكي يمكن البناء عليهما بوصفهما حسرا. فالأسلوبيون لديهم ما يعرف ب " مؤخر الصورة "Background" في مقابل "مقدم الصورة" "Foreground" وهما مفهومان مستخدمان في التحليل الأسلوبي اللساني. فالصرف والنحو "أصل المعنى عند السكاكي" يوفران ما يمكن تسميته "خلفية التحليل" ويوفر علم المعاني بمكوناته السابقة: الصيغة الصغرى ما يمكن تسميته بمقدم التحليل.
- الصيغة الجامعة بين الصيغتين الكبرى والصغرى هي وقوعهما معا تحت ما يمكن تسميته ب "أسلوبيات اللغة" التي تميزهما من الأسلوبيات الذاتية أو "أسلوبيات النص".
- وبقول مصلوح: "وباعتبار ما سبق يمكن الانطلاق من صيغتي السكاكي وتكميلهما لتمييز ثلاثة مستويات تقع متوازية ومترابطة في المعالجة اللسانية الأسلوبية على النحو الآتي:
  - المستوى الأول: لسانيات النص.
  - المستوى الثاني: لسانيات النص الأدبي.
  - المستوى الثالث: لسانيات نص أدبي متعين.

وإذا تجاوزنا عن فكرة لسانيات النص وهي فكرة ليست مطروحة حتى الآن، فضلا عن أن تطرح في القديم، وتأملنا المجالات التي أسهمت فيها نظرية السكاكي، فسنلحظ أنها مست محددات مهمة في دراسة أسلوبيات اللغة وأسلوبيات النص الأدبي".

ولم يكتف مصلوح بما توصل إليه على وجه الجملة بل راح يفصل هذا المجمل من إنجاز السكاكي. ففي مجال دراسة أسلوبيات اللغة: الصوتيات والصرف والنحو (النظم).

وفي مجال أسلوبيات الأدب: الصوتيات الشعرية (العروض والقوافي) والتراكيب الشعرية (علم المعاني) الدلاليات الشعرية (علم البيان) والمقاميات الشعرية (مقتضى الحال).

وفي مجال الأسلوبيات المتعينة:

1 -علم الصوتيات الشعرية ويشمل بعض أنواع الجناس التام والناقص والسجع والقلب ولزوم مالا يلزم

2 -علم الرسم الشعري ويشمل أنواعا من الجناس المركب والمتشابه والمفروض والفنون البديعية القائمة على التصحيف أو التحريف والأشكال البديعية الهندسية.

3 -علم التراكيب الشعرية ويشمل خواص التراكيب من حيث التنافر وعدمه، التعقيد النحوي، جميع مباحث علم المعاني. المجاز بالحذف (من مباحث علم البيان) الجانب التركيبي من المقابلة، التفويف، العكس، اللف، النشر، الابتداء، التخلص والانتهاء، الجمع. التفريق، التقسيم، الجمع مع التفريق، الجمع مع التقسيم، الجمع مع التفريق والتقسيم، رد الأعجاز على الصدور(من مباحث البديع). كما يشمل أيضا البعد التركيبي من الاستعارة والتشبيه والمجاز المرسل

4 -الدلاليات الشعرية وتشمل البعد الدلالي من التشبيه والاستعارة والمجاز المرسل والكناية (من علم البيان) كما تشمل الطباق، التدبيج، مراعاة النظير وتشابه الأطراف، إبهام التناسب، الإرصاد، المشاكلة، الرجوع، التورية، الاستخدام، التجريد، المبالغة، التبليغ، الإغراق، الغلو، المذهب الكلامي،

حسن التعليل، التنويع، تأكيد الذم بما يشبه المدح، تأكيد المدح بما يشبه الذم، .... ص 78/77

5 -المقامات الشعرية: وتمثل فكرة مقتضى الحال عند السكاكي مشروعا طيبا يمكن الانطلاق منه وإعادة النظر فيه لصياغة طراز يتسم بالدقة والشمول في ضوء نظرية "التواصل الشعري Poetic communications" واللسانيات النفسانية والاجتماعية. وتشمل فكرة مقتضى الحال عند الإمام جوانب ثلاثة:

- تفاوت مقامات الكلام بحسب مقاصده
- تفاوت مقامات الكلام بحسب المخاطب
- تفاوت مقامات الكلام بحسب سياق المقال

الأولان من هذه الثلاثة هما من طبيعة غير لسانية أو مما نؤثر تسميته باللسانيات البرانية Meta linguistics. أما الثالث فلساني خالص Proper linguistics. ص 79/78

هذا ولم يؤثر مصلوح أن ينهي هذه القراءة العلمية الرصينة إلا بعد قوله: هذه هي الصورة بمفرداتها وتفاصيلها الثرية التي تجعل من الصعب على الأسلوبيات اللسانية أن تضحي بها أو تجاهلها. وجميع هذه الفنون. .. هي عندنا خصائص أسلوبية بالقوة، قابلة لأن تكون مادة للتشكيل في النص الأدبي وقابلة لأن يعاد فيها النظر بحيث نشكل منها سلما تحليليا يمكن اعتماده في الفحص الأسلوبي للنصوص وتشخيصها. وإذا أضفنا إلى ذلك النموذج المستفاد من الصيغة الكبرى التي اقترحها السكاكي تحت مصطلح "علم الأدب"، أمكن لنا أن نقدر التراث البلاغي الذي وصل إلينا حق قدره، وأن نفيد منه أقصى إفادة ممكنة وأن نكمل نواقصه. "ص 80.

مصادر البحث ومراجعه:

1- حسام محمد أيوب شكري عياد ناقدا أسلوبيا، جرش للبحوث والدراسات المجلد الثامن العدد الثاني 2004، جامعة جرش الأهلية، الأردن.

2- سعد مصلوح، في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية: آفاق جديدة، مجلس النشر العلمي، جامعة الكويت، 2003.

3- شكري عياد، اتجاهات البحث الأسلوبي، دراسات أسلوبية، اختيار وترجمة وإضافة، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، 1985.

4- شكري عياد، دائرة الإبداع مقدمة في أصول النقد، دار إلياس العصرية، مصر، 1986 .

5- عبد الحكيم راضي، التراث بين ثباته في ذاته وتحول النظر إليه، بحث منشور ضمن ندوة بعنوان " أسئلة النقد وإشكاليات الواقع " الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر 2003.

6- عماد عبداللطيف، مناهج الدرس البلاغي العربي المعاصر: مقاربة نقدية، منشور بكتاب عن الندوة الدولية للغة العربية وآدابها نظرة معاصرة، جامعة كيرالا، 2015

7- منذر عياشي، سقوط البلاغة، مقال منشور بمجلة البحرين الثقافية عدد 67، يناير 2012.